**الـدرس الـنحـوي فـي الـخـطاب اللـسـاني الـمـعـاصر**

د.فؤاد بوعلي

لعل أحق ماوجب البدء به وصرف الجهود لتحصيله والكشف عن نسيجه ما كان من العلوم أصلا لغيره وما يستند تحقق المعارف إليه ، وذلك هو علم النحو ، أب العلوم الشرعية ، والأصل الذي تفرعت عنه البقية . إذ له الأسبقية قبل غيره في استكشاف أسرار العربية ومعالجة النصوص الشرعية بغبة توظيفها في واقع المجتمع الإسلامي الناشئ . لذا ظل النموذج النحوي القديم هو الحاضر بقوة في كل مقاربة للغة الضاد ، بل إن بناء درس لساني معاصر لايتأتى إلا من خلال الكتابات النحوية القديمة إما على سبيل النقد والتقويم ، أو على سبيل التبني والشرح . لذا سنحاول في هذا المجال استكشاف أهم معالم المقاربات اللسانية المعاصرة للدرس النحوي بالإجابة عن الإشكال التالي : كيف تناولت اللسانيات العربية المعاصرة النحو العربي ؟

1 ـ سـؤال النـحـو والمعرفة اللغوية :

إذا كان النحو في التعريف المعجمي / الأصلي عبارة عن نسق من القواعد اللغوية التي تهدف إلى تعليم لغة ما1، فإن الدراسات اللسانية المعاصرة قد حافظت على جوهر هذا الفهم القواعدي التقليدي ، لكن بإعطائه صورا أخرى تختلف باختلاف الاتجاهات اللسانية .

ففي الطرح البنيوي المعاصر ، القائم على تصنيف المعطيات اللغوية ، يُمَيَزُ عادة في كل لغة بين مكونين أساسيين : المعجم والنحو . حيث يقدم المعجم اللائحة المفترضة للوحدات اللغوية محددا سماتها الدلالية والمعجمية ، في حين ترتكز وظيفة النحو على تحديد الأشكال التركيبية من خلال إسناد الوظائف كالجهات والحالات ... ووفق هذا الفهم ، فإن النحو هو مجموعة من قواعد التركيب والفونولوجيا التي تأتي تالية للوصف المعجمي / الدلالي

2. وقد كان الإشكال المؤسس لعمل الدرس البنيوي هو تحديد موضوع اللسانيات وضبط المسألة اللغوية واستقلالها عن باقي العلوم الأخرى . لذا كان الهم النظري علميا تجريبيا ، يتجلى في إخضاع اللغة الإنسانية للوضعية العلمية . وعلى مستوى التطبيق انصب الاهتمام على الوصف والتقطيع البنيويين للغات الطبيعية ، حيث تم تصنيف المعطيات اللغوية إلى مكونات متعددة من فونيم ومونيم ومورفيم ... وغيرها ، ثم تحديد أصناف المستويات الدراسية التي تمكن من معالجة الظاهرة اللغوية من مختلف زوايا الرؤية التحليلية . فبالإضافة إلى المعجم يتضمن النحو مستويات أو نُظُم منهجية هي : نظام الأصوات ، ونظام الفونولوجيا ، ونظام التركيب ، ونظام الدلالة . وبهذا بدا الهدف الأسمى عند البنيويين هو تمييز الظاهرة اللغوية عن باقي الظواهر الاجتماعية ، وتصنيف المعطيات اللغوية من مختلف زوايا الدرس . لذا لم تكن رؤية اللسانيات التصنيفية لتختلف في تصورها لمفهوم النحو عن الفهم التقليدي العربي ، وإن كان الاختلاف الأساسي يكمن في الهدف وتنوعه بين الغرض التعليمي عند النحاة والغرض التصنيفي عند اللسانيين .

لكن مع بروز اللسانيات النظرية ممثلة في النحو التوليدي التحويلي ، غدت الغاية هي وضع قواعد كلية لوصف أكبر عدد ممكن من معطيات اللغات الطبيعية : الفعلية منها والممكنة الـتـحقق . ومن ثم ، يحيل اصطلاح "النحو" في هذا المجال على نسق القواعد الافتراضية الموجودة في الدماغ والتي تساهم في تفسير الظواهر الملاحظة. إذ "النحو عبارة عن نسق من الأوليات والمسلمات والمبادئ العامة وهو مُبَنْيَنٌ بشكل دقيق يعتمد قواعد استدلالية تجعل منه بنية استنباطية "

3 . بحيث يعد الهدف الأساسي للنظرية اللسانية ـ حسب شومسكي ـ هو الكشف عن النحو الكلي الكوني الممثل للحالة الفطرية الأولى للكائن البشري . فاللغات ، وإن تنوعت إلى حد كبير ، تنتظم في نفس العمليات الشكلية التي تكون الجمل النحوية . لذا فوظيفة البحث اللساني هي الكشف عن الملكة الفطرية لدى الأفراد أو ما يصطلح عليه بالقدرة اللغوية ، التي تصبح فيما بعد خزانا من التجارب اللسانية القابلة للتحقق أو الإنجاز. ولقد عملت النماذج التوليدية على صياغة العديد من القواعد الشكلية ـ الصورية التي تعمل كآلة باطنية داخل الدماغ البشري . وبما أن اللغة من خلال تآليفها وتجميعاتها غير محدودة ولانهائية ، فإنها تعالج بقواعد نهائية ترسم حدودها . أي أن النحو هو مجموع القواعد المختزنة في القدرة لتوليد ما لا نهاية من الجمل . ومنذ بروز النحو التوليدي إلى الوجود مع كتاب " البنى التركيبية 1957" تعددت النماذج واتجهت نحو التقليص من عدد التحويلات ومن أدوارها بغية ضبطها ، علميا ومنهجيا ، في الربط بين البنيتين السطحية والعميقة. من خلال هذا التحديد بدا أن الاهتمام اللساني قد انتقل من العناية باللغة إلى العناية بالنحو ، أي من تركيز البحث على تجميع المعطيات وتصنيفها ووصفها إلى التركيز على الأنساق القاعدية في الدماغ البشري في مختلف حالاته الفطرية . "فمن المعلوم أن اللغة لامتناهية ، إذ يمكن اعتبارها مجموعة لا متناهية من المزاوجات بين الأصوات والمعاني ، وليس هناك حدود لمعرفتنا لهذه المزاوجات . إلا أن معرفتنا هذه يمكن تمثيلها عن طريق نسق متناه من القواعد يحدد خصائص هذا العدد اللامحدود من الجمل التي نبنيها "4.

و إذا اختلفت التيارات التوليدية في عدد طبقة التحويلات ودور الدلالة في النماذج اللسانية المقترحة فإنها تتفق جميعها على أن النحو نسق من القواعد الصورية المختزنة في القدرة الإنسانية . لذا فهو لاينحصر في مستوى دراسي دون آخر ، بل يضم جميع المكونات الفرعية التي تغيرت هيكلتها بتغير الاقتراحات التوليدية. لكن سنقتصر على الهيكلة الواردة في النظرية المعيار65 .

5 . حيث يتشكل النحو من العناصر التالية :

ـ أ ـ المعـجــــم

ـ ب ـ المكون التركيبي : الـمـكـون الأســـاســي / الـمـكـون الـتـحـويـلـي

ـ ج ـ الـمكون الـدلالي / الـمـنـطـقـي.

ويندرج تحت كل مكون العديد من القواعد التوليدية والتحويلية ، إضافة إلى الكثير من المبادئ والقيود النظرية كقواعد الإسقاط والقواعد الفونولوجية ...

بهذا العرض الموجز يتبين المفهوم التشومسكاوي للنحو الذي بناه بشكل استفاد فيه على الخصوص من علوم يظرية كالرياضيات وعلم النفس التجريبي والفلسفة . لكن السؤال الذي ينبغي التوقف عنده في هذا المقام هو :

ماهي الإشكالات التي شغلت المشروع التوليدي منذ بدايته و حاول الإجابة عـنها ؟

يمكن رد اللسانيات التوليدية إلى سؤالين مركزيين يرجعان معا إلى محور أساسي هو معرفة اللغة:

ـ السؤال الأول : كيف يمكن للكائنات البشرية أن تصل إلى معارف لغوية متعددة بالرغم من اتصالها المحدود بالعالم ؟

ـ السؤال الثاني : ماذا يمكن لدراسة اللغة أن تفيد في فهم طبيعة المعرفة البشرية ؟

إذا كان الإطار المعرفي للمدرسة البنيوية محددا بالوضعية التجريبوية منهجا وفلسفة ، فإن الإشكال المركزي الذي وجه عمل شومسكي كان معرفيا / عقلانيا بالأساس . فعندما انطلق المشروع التوليدي كان غرضه إنتاج فلسفة في المعرفة الإنسانية تعطي للكائن البشري وجوده الحق كإنسان مفكر /عاقل ، وليس كآلة بلومفيلدية تتشكل من مثيرات واستجابات سلوكية . لذا نجد في كتابات شومسكي تحاليل فلسفية لمصادر المعرفة اليونانية ،وتصورات مستلهمة من العقلانية الديكارتية ، وقراءات نقدية لتجريبية هيوم ونسبية كانط... بمعنى أن صاحبنا ، قبل أن يؤسس نظريته اللغوية ، حاول الاستفادة من التراث الفلسفي والعلمي لصياغة نظرية في المعرفة الإنسانية التي تتأسس على المبدأ الكلاسيكي : اللغة مرآة للفكر ، والذي يطرح في المنهج التوليدي بشكل أكثر عمقا . حيث يكون للجهاز اللساني دور أساسي في الكشف عن المبادئ التجريدية المنظمة لعملية المعرفة." وبهذا يكون انشغال التوليدي باللغة انشغالا ذهنيا مفهوميا بالأساس وليس انشغالا بالتمظهرات السلوكية أو المنتوج"7.

أي أن الإشكال التوليدي قد تمحور حول معرفة اللغة ، أي : ماهي طبيعة اللغة ؟ وما هو مصدرها ؟ وكيف تستعمل ؟

**مـظـاهـر الـتـنـاول اللـسـانـي للـبـحـث الـنـحـوي القديـم :**

كان من الآثار الواضحة لتطور الدرس اللساني المعاصر في الغرب واقتباس مناهجه من طرف ثلة من الدارسين العرب ، أن تمت العودة إلى التراث اللغوي القديم بكل معارفه وعلومه ، إما بحثا عن شرعية للوجود اللساني في الذاكرة العربية ، وإما بغية إخضاعه للفحص اللساني المعاصر حتى يتم تطويعه لخدمة أهداف الحداثة . لذا أصبح لزاما على كل من رام البحث في حقائق العربية واستعمالاتها اللجوء للذاكرة النحوية إما على سبيل انتقاء معطيات الدراسة أو انتقاد التجربة التراثية . وفي كلتا الحالتين يظل جوهر الدرس النحوي مغيبا . وليس قصدنا في هذا المجال رفض النماذج اللسانية المعاصرة فيما سماه الفاسي الفهري : دعوى التجريبوية الساذجة8. لكننا نود تقديم قراءة معرفية ومنهجية للجهود اللسانية المعاصرة تبحث في أسس التداول المعاصر لقضايا النظر النحوي القديم .

فمن الثابت أن القراءات المتناولة للنحو العربي ظلت سجينة التصورات الحديثة ، حيث كانت تحاول تطبيق المفاهيم المعاصرة على الدرس القديم مما أبعدها عن جوهره . لأن الأسئلة المعرفية والمنهجية التي شغلت النحاة تختلف عن الأسئلة اللسانية المعاصرة . لذا فكل معالجة ينبغي لها أن تتناول النحو داخل نظام الفكر الذي ولد فيه ، لتكتشف الكيفية التي تشكلت بها المعرفة النحوية . والأمر نفسه ينطبق على المحاولات " الاجترارية " التي تكرر أقوال القدماء تحت دعوى اكتشاف منهجي مثل : أصول النحو العربي لخير الحلواني ، أو تجميع معطيات موجودة في ثنايا الكتب النحوية مثل أغلب البحوث المتعلقة بأعلام الدرس النحوي . وفي الحالتين معا تظل المحاولات المعاصرة بعيدة عن إضافة إجابات حديثة للدرس القديم ، وذلك يبرز من خلال المادة الدراسية ومنهج البحث وأسئلة المعرفة ومفهوم النحو .

2. 1ـ معطيات الدراسة أو اللغة الموصوفة : أول الإشكالات التي طرحت أمام اللسانيات العربية الناشئة هو إشكال المادة المدروسة. فعن أية عربية نتحدث ؟ وهل هناك عربية واحدة أو عربيات عديدة ؟... ولم تخرج الإجابة عن هذه الأسئلة ـ ونحوها ـ عن شكلين دراسيين :

أ ـ الحفاظ على المعطيات اللغوية التي جمعها وصنفها اللغويون القدامى ، وتركيز النقاش حول منهج تناولهم للغة الموصوفة .

ب ـ الادعاء بوجود عربيتين : عربية قديمة كلاسيكية فصحى هي التي تداولها رواد عصر التدوين وبعده ، وعربية حديثة متداولة في نصوص شفوية أو مكتوبة معاصرة .

فقد ظلت الأبحاث اللسانية منذ ظهورها في العالم العربي على شكل دراسات وصفية تركز البحث على مقاربة النحاة للمعطيات اللغوية القديمة ، أي التركيز على منهج الدراسة لا المادة المدروسة . يقول أحدهم : "وينبغي التنبه إلى أن هناك فرقا بين البحث في اللغة واللغة نفسها ، فاللغة المدروسة لا يغيرها اختلاف النظر إليها بمنهج دون آخر"9 . ويبدو الهدف من هاته المحاولة هو إثبات شرعية المنهج اللساني الحديث بدل المنهج القديم ، الذي اعتبر بعيدا عن العلمية للأسباب التالية :

أولا :عدم رسم حدود زمانية ومكانية للفصاحة العربية التي هي الشرط الأساسي في المتن المجموع . فالحد الزماني يمتد من القرن الرابع قبل الهجرة إلى القرن الرابع بعدها ، حيث تبدأ مرحلة الحداثة اللغوية الممنوع الإستشهاد بشعرها أو نثرها . لهذا رفض النحاة الاحتجاج بأشعار المولدين أمثال أبي نواس والبحتري وأبي تمام ، وإن كان بعض المتأخرين قد خرقوا هذه القاعدة10. وقد اعتبر هذا التحديد من طرف الوصفيين المعاصرين إنكارا لدورالعامل الزمني في التطور اللغوي ، وخرقا لمبدإ أساسي هو اعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لما يخضع له المجتمع من تغير و تطور ، وكان من الواجب فتح باب الدراسة للغة في فتراتها المتعاقبة .

أما الحد المكاني فقد رسم بموجبه المجال الجغرافي للقبائل التي تؤخذ عنها والتي كانت في وسط شبه الجزيرة العربية لابتعادها عن الأمم الأجنبية فحافظت على نقاء اللغة و صفائها11. كما اعتمدوا الأخذ عن سكان البوادي دون سكان المدن الذين فسد لسانهم وخرج عن أصل الفصاحة . وعند ابن جني فصل خاص تحت عنوان : "باب في ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر"12 . وقد قرر العديد من الدارسين بأن هذا التحديد المكاني جعل العربية المدروسة ليست كل العربية ، وإنما جزءا منها ، كما أنهم لم يكونوا على حق في ربطهم الفصاحة بالبداوة ، لأن اللغة بنت الحاجة والاستعمال . وبهذا الاعتبار فالنحو العربي نحو ناقص لأنه يقدم مادة ناقصة 13.

ثـانـيـا : حصر المادة المدروسة في مستوى لغوي واحد هو اللغة الأدبية ممثلة في النصوص القرآنية والشعرية والأمثال والخطب ، في الوقت الذي أهملت فيه لغة التداول اليومي التي يستعملها الناس في شؤونهم14. والحقيقة أن العلماء العرب لم يهملوا هذا الصنف اللغوي في دراستهم كما يتبين في القراءات القرآنية والمخاطبات العامة ، مما دفع أحد الدارسين إلى عكس الآية وانتقاد التجربة النحوية بالخلط بين المستويين الأدبي واللهجي في التناول 15 .

و بالرغم من هذه الشوائب التي تصور الوصفيون وجودها في المنهج النحوي القديم ، ومن نعتهم لغة النحاة باللاتطورية واللازمانية، فقد اكتفوا بالإشارة السطحية لمفاهيم التطور اللغوي ولم يستطيعوا طرح جوهر مشكل مادة الدراسة . يقول الفاسي الفهري :"حتى الوصفيون الذين انتقدوا النحاة القدامى أشد ما يكون الانتقاد وعابوا عليهم إفسادهم للنحو بإدخال أدوات ومفاهيم منطقية فيه ، وانتصارهم للقياس واصطناع أمثلة وتراكيب كثيرة لم تكن موجودة في اللغة ولم تسمع عن العرب وإنما أوردوها لتزكية أصولهم ، حتى هؤلاء اكتفوا بالاحتفاظ بما أتى به القدماء من معطيات ولم يحاولوا وصف لغة أخرى بالاعتماد على جرد مواد جديدة انطلاقا من نصوص شفوية أو مكتوبة "16. أي أنهم بالرغم من نقدهم للمنهج النحوي ومعطياته الدراسية ، بقوا محافظين على معطيات القدامى ، حيث رسخ في اعتقادهم أن إشكال المعطيات قد حل في عصر التدوين .

و جملة القول ، إن احتفاظ المعاصرين بمادة القدماء قد وضعهم أمام إشكال منهجي ، خاصة أنه لا يمكن الفصل بين منهج ومادة النحاة ، مما أدى بهم إلى تقديم بدائل وصفية تغري بالحداثة والجدة وبتوظيف المناهج اللسانية الحديثة . لكنها في الحقيقة لا تعدو أن تكون "مَحوَرَة" لكلام القدماء إما عن طريق مزجه ببعض الآراء اللسانية المعاصرة ، وإما بهدم الحدود بين علوم اللسان العربي ، كما فعل تمام حسان عند مزجه علم المعاني بعلم النحو حتى يجد للمستوى الدلالي بمعناه العام مكانا في البحث النحوي 17. ومن أمثلة هذا التذبذب المنهجي تطالعنا المحاولات الإصلاحية للنحو العربي نحو :"النحو الجديد" لشوقي ضيف ،و "أصول النحو العربي " لمحمد عيد ، و"دراسات نقدية في النحو العربي " لعبد الرحمن أيوب .. وغيرها كثير. وكلها لا تعدو، بالرغم من مقدماتها النظرية المغرية ،أن تكون إعادة تنظيم الأبواب النحوية أو حذفا لبعض المفاهيم القديمة ، مما جعلها محاولات مبتورة . وللخروج من هذا الإشكال المنهجي أقر العديد من الدارسين بوجود اختلاف كبير بين اللغة العربية الموروثة عن متون عصر التدوين وعربية المحاضرات والندوات والإعلام في عصرنا الحالي . ويجرنا هذا التصور إلى التخلي عن وساطة الآلة النحوية والتعامل المباشر مع النصوص اللغوية . " فبناء نحو اللغة القديمة مثلا لا يحتاج ضرورة إلى المعطيات الموجودة في النحو القديم ، بل يمكن أن يستغنى عنها باستعمال النصوص القديمة"18. أما بناء نحو العربية الحديثة ولهجاتها المنتشرة فتعتمد على المعطيات المعاصرة شفهية كانت أم كتابية والتي تجمع كل مستويات النحو من معجم وتركيب ودلالة وصواتة . لكن يذهب بعض الباحثين إلى أن الإقرار بوجود عربيتين هو طرح شكلي ، بحيث أن الاختلاف الذي قد نصادفه بين المتن القديم والتداول الحديث لا يمس الجانب التوزيعي للألفاظ بقدر ما ينحصر في الجانب التحويلي . " ذلك لأن بعض التحويلات التي كانت معروفة في العربية القديمة قد عزف عنها الاستعمال وعوضت بتحويلات أخرى ، من ذلك مثلا ظاهرة الاشتغال في اللغة ، حيث أصبح الناس يكتفون بتقديم الفاعل تاركين المفعول به مكانه "19. لذا فالانشغال الأساسي ينبغي أن يكون هو تتبع مسار التحويلات ، وليس الانكباب على الأصول الرتبية الأولى التي لازالت تحافظ على نسقها. وفي الحالتين معا غدا القول بالفصل بين صنفين لغويين من العربية لازما في البحوث اللسانية المعاصرة ، وذلك لسببين رئيسيين :

أولهما القياس على اللغات الأوربية التي تخضع لتغييرات دائمة في مفرداتها وأشكالها الصرفية والتركيبية ، ما دام المعجم يخضع لمنطق الاستعمال اليومي . في حين ظلت العربية جامدة منذ عصر التدوين في قوالب صرفية ونحوية ، مما دفع أحد المفكرين المعاصرين إلى وصفها بأنها لغة لا تاريخية وذات طبيعة حسية تنقل في ثناياها عالم الصحراء والأعراب ، لذا "فالأعرابي هو صانع العالم العربي "20 .

ثانيهما عدم خضوع العربية ،كما هي واردة في متون النحو العربي القديم ، للعديد من القواعد اللسانية المعاصرة ، مثل :التنغيم والنبر، وبعض الحالات التركيبية كالاستفهام بأصنافه المختلفة 21 .

2.2 ـ إشكاليـة المـنـهـج ومسـتـويات الـدراسـة : من أزمات البحث اللساني المعاصر أزمة المنهجية . فبأي منهج علمي يمكننا دراسة اللغة العربية ؟ وكيف يمكننا قراءة جهود القدماء على المستويين التصنيفي والمنهجي ؟.

لقد تبلورت إجابات الدارسين المعاصرين عن هذه الإشكالات في ثلاثة قراءات : تبسيطية ووصفية وتنظيرية.

أـ الـمنـهـج الإنـتـقائـي التبسـيـطي : ما انفك التراث النحوي يحظى بالقراءة منذ بزوغ فجر العصر الحديث . حيث انكب عليه المستشرقون والدارسون العرب بحثا فيه عن مواطن القوة وعن إمكانية التبسيط . فقد كان الهم الذي حرك دعاة التجديد هو جعل قواعد النحو العربي في متناول المتعلم بعيدا عن نقاشات المدارس وتعليلات النحاة وأقيستهم . ويكفي أن نقوم بإطلالة على كتاب "في إصلاح النحو العربي"، حيث يورد فيها صاحبه جردا لجل المحاولات التبسيطية التي اقترح فيها أصحابها بدائل نحوية جديدة."ويترتب عن هذه النظرة أن التراث النحوي لا يفِ بخصائص العربية ولا يحيط يأساليبها المتنوعة ولا يكشف عن مقدرتها في التعبير"22. فمن هذه المحاولات، ومن أبرزها محاولة إبراهيم مصطفى في "إحياء النحو" حين حدد هدفه بقوله: "أطمع أن أغير منهج البحث النحوي للغة العربية وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النحو و أبدلهم منه أصولا سهلة يسيرة تقربهم من العربية "23. ولذا، استحدث تصنيفات جديدة محاولا استبعاد مفاهيم العلة والعامل . وعلى هذا المنوال سارت محاولات العديد من دعاة التجديد والتبسيط باستبعاد المظاهر 'العقلية' والخلافية داخل الكتابة النحوية ، وخاصة جهود المجامع اللغوية في إنشاء كتب مدرسية قريبة من أفهام الطلاب . لكن حقيقة النحو كآلة معرفية ظلت هي الغائب في كل هذه الجهود ، فظلت محاولات 'المجددين' مبتورة عن سياقها وعن مجال تطبيقها. فالنحو ليس أداة لغوية فحسب ، بل هو رؤية خاصة للعالم تلتحم كل أجزائه للتعبير عن صيغة التأويل المثلى .

ب ـ الـمـنـهـج الـوصـفـي: إضافة إلى الإنتقادات التي وجهها رواد المنهج الوصفي لقاعدة معطيات النحو القديم ، صوبوا كذلك نقدهم نحو المنهج النحوي 'التقليدي' نجملها فيما يلي :

1-كان التقعيد النحوي تقعيدا منطقيا متأثرا بالمنطق الأرسطي منذ مراحله الأولى. وازداد هذا التأثير في القرون المتأخرة . ويبرز هذا الأمر في تصنيف المقولات وفي استعمال الوسائل الإجرائية كالقياس و التعليل والعامل. يقول أحد رواد الوصفية: " أما النحو العربي فإن أثر المنطق فيه يبدو من جانبين اثنين :أولهما جانب المقولات وتطبيقها في التفكير النحوي ، وثانيهما الأقيسة و التعليلات في المسائل النحوية الخاصة مع ما يساير ذلك من محاكاة التقسيمات اللغوية التي جاء بها أرسطو في دراساته "24. وهذا هو الذي جعل النحو يأخذ صبغة معيارية هدفها ضبط مواطن الصواب والخطأ في التعليم اللغوي ، فترضخ له كل الاستعمالات اللهجية.

2 ـ اختلاف المستويات الدراسية في البحث النحوي القديم . فاللغة كما يقدمها الدرس اللساني الحديث نسيج من الأنظمة ." فلها نظامها الأصواتي الموزع توزيعا لا يتعارض فيه صوت مع صوت ولها نظامها التشكيلي (الفونولوجي) الذي لا يتعارض فيه موقع مع موقع ، ولها نظامها الصرفي الذي لا تتعارض فيه صيغة مع صيغة ،ولها نظامها النحوي الذي لا يتعارض فيه باب مع باب ،ولها بعد ذلك نظام للمقاطع و نظام للنبر و نظام للتنغيم، فهي منظمة من النظم على حد تعبير بعضهم "25. واعتقادا بهذا الشكل الدراسي وتسلسل مستوياته في كل مقاربة لغوية حكم دعاة الوصفية العرب على جهود النحاة القدماء ومناهج كتاباتهم بالاضطراب ، حيث لم يتبعوا خطة منهجية تبدأ من أبسط العناصر التحليلية إلى أكثرها تركيبا26. إضافة إلى أن مفهوم القدماء للنحو كان مفهوما عاما يتناول كل المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية قبل أن يخصص ـ مع النحاة المتأخرين ـ في قضايا العمل والإعراب . وقد جعل تداخل هذه المستويات البحث النحوي غير خاص بمجال التركيب كما تعارف عليه أهل اللسانيات التصنيفية ، بل كان عاما وشاملا لكل قواعد اللسان العربي ، وهذا ما لا يقبله علم اللغة الحديث 27 .

ج ـ الـمـنـهـج الـتـنـظـيـري : لقد قدم رواد المدرسة التحويلية في العالم العربي إجابات واضحة عن الإشكالين المركزيين للبحث اللغوي : إشكال المنهج وإشكال القراءة . فبعد ردح من الزمن طغت فيه الدراسة الوصفية على المقاربات اللغوية حاملة معول الهدم على كل المظاهر العقلية في النحو العربي تحت شعار التبسيط ، أتت التوليدية في ثوبها العقلاني الفلسفي لتعيد للدرس اللساني العربي جوهره الفكري . وكانت بداية عمل الدارسين هو البحث عن مواطن التشابه بين اللغويات العربية القديمة والدراسات التوليدية الحديثة . وهكذا " إذا تجاوزنا خصوصيات السياق التاريخي و الثقافي لكل منهما وجدنا البحث اللغوي الحديث يضارع البحث اللغوي عند العرب من جهة أنه يستوي لكل منهما تراث عريض تقلب خلاله في مراحل تأثر بالمعطيات الثقافية و ما تهيأ معها من أدوات حادثة " 28 . وقد ساهم التطور المتسارع للنماذج التوليدية في خلق اعتقاد راسخ بالتماثل بين المنهج الشومسكاوي والمنهج النحوي القديم لدى اللسانيين، فراحوا يبحثون في ثنايا هذا الأخير عن مظاهر تحويلية وتوليدية تسعف الموافقة بين المنهجين . وهكذا نجد الدكتور عبده الراجحي يحدثنا عن "الجوانب التحويلية في النحو العربي "، والتي حددها في جملة من العناصر هي29:

ـ قضية الأصلية و الفرعية التي تماثل البنية العميقة و السطحية في اللسانيات الحديثة .

ـ قضية العمل التي نجدها حاضرة في التراثين معا.

ـ قواعد الحذف و الزيادة وإعادة الترتيب .

ويخصص حماسة عبد اللطيف بحثا منفردا لمعالجة "الأنماط التحويلية في النحو العربي" ، متتبعا سلك التحويلات المختلفة التي تعرض للعربية تركيبا وإفرادا30. في حين يتجه مازن الوعر وجهة تركيبية خالصة محاولا تحديد أنماط التراكيب الأساسية في العربية في جمع فريد بين معطيات النحو القديم و معطيات النماذج التوليدية31.

وعلى هذا المنوال سارت محاولات الدارسين بتقديم المقترحات التحويلية وتطبيقها على التراث النحوي معتقدين تماثلا منهجيا في أسس التحليل. وقد وصل الأمر بالبعض تأويل هذا التقارب بمطالعة شومسكي لقضايا العربية أثناء بحوثه في اللسانيات العامة وفي النحو العبري 32. لكن بالرغم من كل هذا تبقى قراءة التوليديين على أهميتها وجديتها قراءة انتقائية للتراث النحوي تبحث عن مظاهر التلاؤم والانسجام مع معطيات البحث المعاصر دون النفاذ إلى مساءلة الأساس المعرفي لقيام النحو العربي . بمعنى أن المعالجة التوليدية كانت ردا على تعسف وصفي على النموذج القديم، لكنه لم يزد على أن وجه البحث نحو الصورنة والتجريد .

ونحن نتحدث عن التطبيق اللساني التوليدي في عالم العربية لا يمكن إغفال محاولة ، أو محاولات، الدكتور الفاسي الفهري التي تبقى مميزة ببحثها عن الشمول والإبداع ، عكس المحاولات الأخرى التي كانت إما جزئية تبحث في قضية محددة ، وإما تكرارية تجتر المفاهيم والآراء التوليدية . حيث وضع صاحبنا لمنهجه هدفا مركزيا هو وصف اللغة العربية الحالية وصفا كافيا يمكن من بناء نحو يمثل الملكة الباطنية للمتكلم/المستمع العربي 33. واستنارة بالنماذج التوليدية يفترض وصف العربية وصفا كافيا مجموعة من المسلمات المنهجية :

ـ توجيه العمل الدراسي نحو اللغة العربية المتداولة ، في نفس الوقت الذي تدرس فيه المعطيات القديمة .

ـ اعتبار العربية لغة كباقي اللغات الطبيعية تشاركها في العديد من الخصائص والمكونات ،لأن كل المخلوقات البشرية تشترك في بنية معرفية محددة هي القدرة التي يمكن تمثلها على شكل قواعد كلية." وكونها عربية لا يعني أنها تنفرد بخصائص لا توجد في أية لغة من اللغات ،بل لا نكاد نجد ظاهرة في اللغة العربية إلا ونجد لها مثيلا في لغة أو لغات أخرى "34.

ـ التمييز بين اللغة الموصوفة وآلة الوصف ، مما يمكننا من الخروج من أسر المنهج النحوي القديم ."فبناء نحو اللغة القديمة مثلا لا يحتاج ضرورة إلى المعطيات الموجودة في النحو القديم ، بل يمكن أن يستغنى عنها باستعمال النصوص القديمة "35.

و خلاصة القول ، إن النهج التوليدي عمل على تأصيل نظرية لسانية عربية تعالج قضايا العربية القديمة والحديثة ، وذلك باعتماد آلة واصفة صورية تدرس القدرة اللغوية العربية . لذا واجهت التراث النحوي بالنقد المنهجي وبانتقاء المعطيات الدراسية منه . إلا أن الظواهر التي عالجها اللسانيون العرب كانت 'استنساخا' لقضايا معالجة في اللغات الأوربية بوحي من معطياتها ، مما جعلها تركز على قضايا دون أخرى. وهذا ما ينفي عنها صفة الشمولية والكلية 36 .

**مـفـهـوم الـنـحـو وأبـعـاده الـدراسـيـة :**

إذا كان اللغويون العرب المعاصرون قد فتنوا بدعوى الموضوعية في الدرس الحديث وراحوا ينعتون القدماء بالمعيارية والمنطقية والنقص المعطياتي واللاعلمية ، فإن المجال الحقيقي لبروز محاولاتهم التجديدية هو مفهوم النحو وتحديد مجاله الدراسي . وقد عزف العديد من الباحثين عن وضع تعريف جامع لعلم النحو اقتداء بأئمة النحو الأوائل أمثال : سيبويه و المبرد و الزجاج...حيث عمدوا مباشرة إلى عرض المباحث النحوية وفق رؤاهم التجديدية التي تخلص النحو من كل الشوائب المأخوذة عليه37. لكن المعمول به في أغلب الدراسات والمصنفات الحديثة هو توضيح المراد بالنحو بغية معرفة مجاله ووظيفته وتمييزا له عن باقي أصناف علوم اللسان العربي.

ومن خلال مجمل الحدود المعاصرة للنحو نستطيع ـ في قراءة موجزة ـ أن نستشف حضور أربعة أبعاد يرام وجودها في الآلة الدراسية المسماة 'نحو': البعد الوظيفي ، والبعد الدلالي ، والبعد الوصفي ، والبعد النظري/التوليدي . والحدود بين هذه الأبعاد ليست إلزامية ، فقد نجد ضمن نفس التعريف أكثر من بعد ، كما نجد نفس البعد شاملا لتعاريف عدة . لكن هذه الأبعاد تشكل في حد ذاتها آفاقا للبحث النحوي المقصود ، مستبعدين الآراء الاجترارية التي تعيد كلام القدماء .

أ ـ الـبـعـد الـوظـيـفـي : اتخذ العديد من الدارسين من فكرة تعقيد النحو وغموض لغته مبدأ محوريا بنوا عليه أعمالهم ونماذجهم المقترحة من أجل تبسيط النحو العربي . ومادام الهدف التعليمي هو الحاضر بقوة في كل تصور لوظيفة النحو ، فإن صعوبته تنسب دوما إلى نظام قواعده. يقول سلامة موسى :" الواقع الذي لا أناقش فيه أن اللغة العربية يشق على الطالب تعلمها و طلبتنا مكدودون في المدارس يكدحون لفهم المئات من قواعدها ويخرجون بعد ذلك منها وهم يكرهونها "38.

وفقا لهذا التصور سارت مجموعة من الأبحاث في طريق استبعاد كل مظاهر الصعوبة والغموض التي تواجه متعلمي العربية. لذا يميز إبراهيم مصطفى في محاولته الإحيائية بين صنفين من القواعد في متون النحو العربي : صنف لا تجد في تعليمه عسرا ولا في التزامه عناء كأحكام العدد ، ونوع آخر كثر فيه خلاف النحاة ويعسر درسه كرفع الاسم أو نصبه 39. و للخروج من الجدالات النحوية ومن الغموض التعليمي يقدم لنا إبراهيم مصطفى نموذجا للنحو الوظيفي . حيث ينعت النحاة بوقوفهم عند الشكل الظاهري وإهمال صلة العلامات الإعرابية بالمعنى . لذا يرشدنا إلى الطريق الصحيح الذي هو أن " ندرس علامات الإعراب على أنها دوال على معان وأن نبحث في ثنايا الكلام عما تشير إليه كل علامة منها"40. وخلص إلى أن "الرفع علم الإسناد ودليل أن الكلمة يتحدث عنها . إن الجر علم الإضافة سواء أكانت بحرف أم بغير حرف . إن الفتحة ليست بعلم على إعراب ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة التي يحب العرب أن يختموا بها كلماتهم مالم يلفتهم عنها لافت ، فهي بمنزلة السكون في لغتنا الدارجة . إن علامات الإعراب في الإسم لاتخرج عن هذا إلا في بناء أو نوع من الإتباع وقد بيناه "41. على هذا المنوال الوظيفي يؤسس صاحبنا لمشروع النحو العربي الجديد بعيدا عن ضيق الإعراب وتفسيرات النحاة العقلية . فيعرف النحو بأنه : " قانون تأليف الكلام وبيان لكل ما يجب أن تكون عليه الكلمة في الجملة و الجملة مع الجمل حتى تتسق العبارة و يمكن أن تؤدي معناها "42. ومن ثم ، تناول بالدرس والتحليل قضايا بناء الجملة مخلصا إياها من التأويلات النحوية والخلافات المذهبية ، ومركزا بالأساس على دلالاتها الوظيفية حتى يسهل تعلمها للمتكلم العربي . وإذا كانت محاولة إبراهيم مصطفى تتسم بنوع من الجرأة والشمولية في طرح مناهج النحاة للنقد و التمحيص ، فإن القرن الحالي قد شهد العديد من المحاولات الوظيفية التي تحاول تقريب النحو من أذهان المتعلمين جمع جلها عبد الوارث مبروك سعيد في "في إصلاح النحو العربي ". والجامع المشترك بين كل هذه المحاولات يتخلص ـ إلى جانب الهدف التعليمي ـ في اعتبار التراث النحوي لا يقدم وصفا صالحا للعربية من حيث تفسير نظامها و شرح خصائصها.

ب ـ البعد الوصفي / البنيوي : ارتباطا مع البعد السابق يقوم البعد الوصفي ، الذي يستمد أسسه من اللسانيات البنيوية ، على ضرورة أن يتسم النحو بالآلية الوصفية المقاربة للمظاهر الصوتية والتركيبية والدلالية في اللغة دون النفاذ إلى دهاليز التفسير والتعليل..يقول تمام حسان : " اللغة إذا موضوع من موضوعات الوصف كالتشريح لا مجموعة من القواعد كالقانون...الباحث في تشريح اللغة ، والمقصود هنا تحليلها تحليلا دراسيا ، لا ينبغي أن يعبر عن موقفه من موضوعه بالنص على ما يجوز وما لا يجوز.وهم اللغوي لهذا السبب أن يصف الحقائق لا أن يفرض القواعد"43. واعتمادا على مبادىء الثورة التي احدثتها اللسانيات الوصفية في قراءتها للنحو التقليدي بنى اللسانيون العرب دراساتهم على التمييز الضروري بين اللغة العربية كمعطيات والنحو العربي كآلة واصفة ، حيث عابوا على هذه الأخيرة هيكلة منهجها على أسس عقلية بحتة. وسواء تأثر النحو العربي بمنطق أرسطو أم لا ، فإنه صاغ مختلف قضاياه على اعتبارات تفسيرية لا وصفية ، والتي تجمع عادة في أبواب ثلاثة : باب القياس ، باب التعليل ، باب العامل . وقد شكل ظهور كتاب "الرد على النحاة" لابن مضاء القرطبي سندا تراثيا للباحثين عن تخليص النحو العربي من كل شوائب التعقيد . وكما يصرح بذلك محقق الكتاب : " والحق أن ابن مضاء يفتح أمامنا الأبواب لكي ندرك ما كنا ننشده من تيسير النحو وتذليل صعوباته ومشاكله"44. وقد حظي هذا الكتاب بأهمية ما فتئت تتعاظم عند كل الباحثين الوصفيين ، بل قد نجزم بأنها العامل الأساس الذي دفع العديد منهم إلى بناء نموذج نحوي عربي اللغة ، وصفي المنهج ، باستبعاد كل مظاهر العقل النحوي التي أبعدها ابن مضاء وخاصة قضايا: التعليل والقياس والعمل والتقديرات الموغلة ، والتمارين غير العملية. هذه الصرخة من عمق التراث كانت كافية لأصحاب النحو الجديد ليعطوا مقترحاتهم الوصفية . حيث نجد الدكتور شوقي ضيف يقتبس من ابن مضاء جهوده ليبني نموذجا تجديديا يقوم على إعادة تنسيق أبواب النحو وبلورة أفكار ابن مضاء من خلال استبعاد كل القضايا غير العملية والتي لا تنفع المتعلم العربي45.

ويميز الدكتور المهيري بين صنفين / مستويين في الدرس النحوي العربي 46:

- مستوى التأصيل الذي هو مستوى تفسيري نظري مبني على التأويل والاعتراض .

- مستوى التقعيد الذي هو عبارة عن ضوابط استعمالية وذو صبغة عملية يمكن التدليل عليه بما يوفره الاستعمال والأمثلة البادية للعيان.

لذا فالنحو ينبغي أن يركز على جانب التقعيد دون الانكباب على قضايا التأصيل التي تبدو عديمة الفائدة بالنسبة للمتكلم العربي.

اعتمادا على التصور الوصفي حدد مجال النحو في المظاهر التركيبية الظاهرية . يقول محمود عبد السلام : "واللغويون المحدثون يذهبون إلى أن النحو هو الدراسة الأفقية للغة. بمعنى أن كلمات اللغة حين تتجاور لتشكل تراكيب تظهر في صورة أفقية على النحوي أن يكتشف أن العلاقات النحوية المختلفة التي تربط بين كلماتها"47.

وفي نفس الإطار يقول مهدي مخزومي في محاولته التجديدية لقواعد النحو العربي : " التأليف موضوع الدرس النحوي ، لأن النحو لا يعنى بالصوت وما يتعلق به من ظواهر لغوية ولا بالكلمة المفردة وما يتعلق بها،وإنما يعنى بالكلمات المؤلفة مع غيرها في عبارة أو جملة"48. وهكذا بعد إبعاد كل المظاهر المنطقية والعقلية التي ملأت بطون الكتب النحوية ، تصبح دراسة النـحو هي: "دراسة مجموعة الطرق المتبعة في وصف الكلمات"49، من خلال وصف العلاقات التركيبية التي تربط بينها ، دون ولوج متاهات التفسير والتاويل .

ج ـ البعد الدلالي /المعنوي : لقد كان من أهم المؤاخذات التي ألصقت بالدرس النحوي من طرف الباحثين صفة ' الشكلية '. والتي تعني ـ من ضمن ما تعنيه ـ الاهتمام بمظاهر لفظية بحتة دون الاهتمام بقضايا الدلالة. وبتعبير مصطفى إبراهيم : "إنهم ـ أي النحاة ـ رسموا للنحو طريقا لفظية"50. فالاعتقاد الراسخ هو توجه البحث النحوي في عمومه إلى مبنى الجملة دون معناها، حيث كان التركيز على الجانب التحليلي دون الجانب المعنوي ، سواء في مستواه الوظيفي كالإثبات والنفي والشرط...أو في مستواه المقامي السياقي51. وبما أن كتابات النحاة خالية من كل هذه المعاني، فقد لجأ الدارسون المعاصرون إلى الاستفادة من علمي الأصول والبلاغة في بناء آلة واصفة تستحضر اللفظ والمعنى معا. وهذا يعني توسيع مجال الدراسة النحوية لتدخل فيها المعاني السياقية والمقامية . لذا نجد شيخ اللسانيين المعاصرين تمام حسان يميز بين ثلاثة أنظمة تتكون منها اللغة : النظام الصوتي والنظام الصرفي والنظام النحوي." لأن دراسة العلاقة بين الصوت والصوت هي علم التشكيل الصوتي ، ودراسة العلاقة بين الصيغة والصيغة هي علم الصرف ، ودراسة العلاقة بين الباب والباب هي علم النحو "52. وبهذا ، فالنحو لم يعد مهتما بمظاهر الإعراب الشكلية، بل أصبح يتعداه إلى ما هو أوسع ، أي ما سماه صاحبنا : التعليق . حيث يقوم النظام النحوي في العربية على الأسس التالية 53:

1 - مجموعة من المعاني النحوية : عامة (معاني الجمل أو الأساليب) وخاصة ( معاني الأبواب كالفاعلية والمفعولية...)

2 – مجموعة من العلاقات الرابطة بين معاني الأبواب مثل علاقة الإسناد أو النسبة أو التبعية، وهي قرائن معنوية تدل على معاني الأبواب.

3 - مجموعة من القرائن الصوتية كالحركات و الحروف ،أو الصرفية مثل مباني التصريف والتقسيم أو مجموعة من القيم الخلافية.

إذن ، فتصور المؤلف للنظام النحوي يقوم على فكرة مركزية هي التعليق. " إن التعليق هو الفكرة المحورية في النحو العربي.و هو الإطار الضروري للتحليل النحوي "54. وقد انطلق في ذلك من محاولة الجرجاني في تفسير العلاقات السياقية مقتبسا منه مصطلحي : التعليق والمعاني النحوية 55. وقد أصبح النحو بهذا ذا بعد دلالي واسع غير منحصر في ترتيبات شكلية لفظية ، كما رسم النحاة القدامى ، بل أصبح يهتم بكل أصناف الترتيبات اللفظية والدلالية . وقد دفعت هذه المحاولة ، الرائدة بحق في الكتابات المعاصرة ، العديد من الباحثين إلى القياس عليها والبحث عن مواطن الدلالة في البحث النحوي أو ما يسميه بعضهم بروح التركيب المستمد من المعنى ونسبة ما بين العناصر الخارجية 56.

د ـ البعد النظري/ التوليدي : إذا كان هدف المحاولات السابقة هو إصلاح النحو العربي مما شابه من أخطاء و نقائص ،فإن هدف رواد التوليدية العرب هو خلق نحو جديد واصف للعربية اعتمادا على مبدإ تطوري أساسي: " فمهما كانت قيمة الأنحاء التي وضعها القدماء أو المحدثون لهذه اللغة أو لغيرها ،فإن هناك حاجة إلى إعادة بناء أنحاء أخرى ،أي آلات أخرى، وتتنبأ بها علاوة على أنها لا تحمل بنفس الجهاز المفاهيمي أو النظري"57 . وفي ظل السؤال المحوري للمشروع التوليدي المتعلق بمعرفة اللغة ، يميز بين معرفة اللغة الخاصة و بين الحالة الذهنية المشتركة بين جميع الكائنات . إذ إن " معرفة لغة ما يرصدها نحو توليدي خاص أو نظرية لحالة الذهن / الدماغ في مرحلة معينة. و أما النحو الكلي فهو نظرية للحالة الأولى، أو هو جهاز اكتساب اللغة الذي يتفاعل مع تجربة محدودة للوصول إلى لغة معينة "58 . لذا فكل دراسة لسانية تتوخى أمرين اثنين:

ـ رصد مظاهر الملكة اللغوية العامة .

ـ رصد الفروق النسقية بين اللغات التي تمثل تجسيدا للملكة الخاصة المكتسبة .

وهكذا انطلقت المحاولات العربية ،إستنادا إلى التطبيقات الأخرى على اللغات المختلفة ، تبحث في مظاهر القدرة العربية مطبقة القواعد الكلية التي ابتدعتها النماذج التحويلية . وكل باحث يتغنى بنموذجه و كفايته التحليلية . حيث تختلف الإطارات المنهجية من باحث إلى آخر. فنجد الفاسي الفهري يتبنى منهج القواعد الوظيفية والمعجمية الذي وضعته الباحثة الأمريكية برزنن ويحاول تطبيقه على العربية 59. ويحاول مرتضى باقر تطبيق نظرية عالم الدلاليات جاكندوف على التراكيب العربية60. في حين يأخذ مازن الوعر بالإطار المنهجي للنظرية الدلالية التوليدية التي أسسها اللساني الأمريكي كوك61. ولعل تعدد هذه النماذج المقترح تطبيقها على العربية هو الذي جعل الوصف اللساني غير مستقر على صيغة معينة. لأن العمل اللساني العربي قد حصر نفسه في دائرة تطبيق القواعد الكلية الممثلة للملكة اللغوية العامة على الملكة العربية الخاصة. وهذا على الأقل هو ما عبر عنه أحد شيوخهم : " نهدف من خلال هذا العمل إلى وصف اللغة العربية الحالية وصفا كافيا يمكن من بناء نظرية للغة العربية أو نحو يمثل الـملكة الباطنية لمتكلم هذه اللغة ومستعملها"62. لكن ما النحو الذي يراد هنا ؟.لن يكون المقصود بالنحو هنا إلا المفهوم الشومسكاوي الذي سبق أن أوضحناه باعتباره نسقا من القواعد التركيبية والصرفية والصوتية والدلالية . ومن ثم ، فالحديث عن نحو للعربية هو حديث عن نسق عربي من القواعد المختزنة في قدرة المتكلم العربي ، والتي لا تختلف في شموليتها عن قدرات الأناس الآخرين . لذا عمل المشروع التوليدي المعرب ، من خلال النمذجة والصورنة على معالجة مستويات الدرس اللغوي من خلال مكونات النحو التمثيلية ، بحثا عن الأسس الكلية و السمات الخاصة في لغة الضاد.

وخلاصة القول ، فقد ظلت النماذج اللسانية المقترحة لوصف اللغة العربية تعاني من غياب رؤية واضحة للتعامل مع التراث اللساني العربي . فباستثناء بعض المحاولات الجريئة الداعية لخلق نموذج لساني عربي الرافد مع الاستفادة من الأطروحات الغربية 63، فإن الغائب الأكبر في كل المحاولات هو معالجة اللسان العربي من خلال استكناه أصول النظر النحوي القديم. إذ نتحدث عادة عن الأسس المعرفية /الفكرية التي بنيت عليها اللسانيات المعاصرة بمدارسها المختلفة ، في حين نهمل البحث عن ركائز الدرس النحوي المعرفية . وبما أن استيعاب النماذج في أصولها ومساءلة أبعادها الإيبستمولوجية هو وحده السبيل إلى إغناء معرفتنا بأنفسنا ومعرفتنا بالآخر ، فما يأتينا ليس مجرد مفاهيم عارية من أي غطاء حضاري ، بل هي نماذج معرفية تخفي داخلها نمط الحياة وإنتاج القيم . وبتغييب هذه المفاهيم الثاوية ستظل قراءتنا لعمل الخليل والجرجاني والرازي ... وغيرهم ، قراءة ظاهرية تقف عند النتائج دون أن تنفذ إلى الأسس الثاوية وراء القول التراثي . و لذا نجد أن تعامل الدارسين المعاصرين مع المخزون النحوي القديم كان عبر آليتين متلازمتين:

ـ آلية الإنتقاء تختار بموجبها الشواهد النحوية من متون الأقدمين لتعضد النموذج اللساني المعاصر وطريقته في معالجة اللغة العربية . ومن خلال هذه الآلية يصبح النحو العربي'منجما شواهديا' أكثر منه معالجة علمية للغة طبيعية. واستدلالا على هذا يكفي مطالعة إنتاجات الوصفيين العرب أمثال تمام حسان وإبراهيم مصطفى... وغيرهما في انتقاء الآراء المؤيدة لتصورهم من عمق التراث ، حيث أصبح الجرجاني وابن مضاء رموزا مضيئة في "ظلمة" العقلية النحوية.

ـ آلية الإسقاط المفاهيمي حيث تحاول الدراسات المعاصرة إعادة إنتاج النحو القديم بمفاهيم وقوالب لسانية حديثة ، أي تبرير المعالجة الحديثة من خلال القديم . وهذا يبرز من خلال المحاولة التي قدمها عبده الراجحي في بحثه عن الأسس اللسانية للنحو العربي، حيث أحصى الجوانب الوصفية في الكتابات النحوية، ثم أعقبها بإبراز المظاهر التحويلية داخلها. وعلى هذا المنوال سارت العديد من الكتابات الحديثة نذكر منها : "الأنماط التحويلية في النحو العربي" لحماسة عبد اللطيف ، و"نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث" لنهاد الموسى، و"الفكر اللساني في الحضارة العربية " لعبد السلام المسدي...وتشترك هذه الأبحاث في كونها تعيد إنتاج قول قديم بنظر معاصر، مما يعيق التواصل مع التراث النحوي القديم. و لعل أبرز مظاهر التعامل الإنتقائي / الإسقاطي مع الخطاب التراثي هو مجال النحو وحدوده العلمية والمعرفية. حيث ركزت كل الأقلام على أربعة أبعاد غابت في نصوص البحث القديم : النظري والوصفي والدلالي و الوظيفي ، دون أن تسائل النصوص التراثية عن الأسس الفكرية المنتجة لها .أو بمعنى آخر ، فقد ظل رهان كل اللسانيين العرب هو إثبات مشروعية اللسانيات العربية ، وكانت قراءتهم للتراث لا تعدو خدمة هذا المشروع . لذا لم يكن ممكنا الوقوف عند أصول المعرفة النحوية آنئذ، لكن الوقت حان لاستكشاف هذه الأصول حتى نتبين مدى المسافة التي تفصل الآلة الواصفة عن معطيات الدراسة. إذ إن كل الخطابات اللسانية لم تستطع أن تبلغ عمق النظر النحوي وإنما ظلت محصورة في الحديث النحوي الذي ليس إلا نتيجة نهائية لأسس معرفية و منهجية قائمة . والسبيل للوصول إلى ذلك هو مراجعة الأسئلة التي شغلت بال علماء السلف التي تختلف جذريا عن أسئلة اللسانيات المعاصرة، حتى لا يغدو الحديث عن لسانيات عربية معاصرة وهم من الأوهام "البيكونية" .

الـــهـــوامــش :

1

ـ أنظر :مادة(نحو) في معجم مقاييس اللغة لابن فارس5/403. تحقيق : عبد السلام هارون . ط1/ 1991م . دار الجيل . بيروت .

:Syntaxe Générale .p105 \_2 .André Martinet و قد ذهب العديد من الباحثين العرب إلى جعل النحو مرادفا للمصطلح الغربي syntaxe. إنظر:مناهج البحث في اللغة لتمام حسان.ص:228( دار الثقافة . البيضاء 1979م) . وترجمة يوسف عزيز لكتاب شومسكي (البنى النحوية) حيث جعل النحو مقابلا للصرف في حين ترجم Grammaire. بـ: نظام القواعد. أنظر :البنى النحوية. ص:13. الطبعة الثانية 1987. النجاح الجديدة.البيضاء.

3 ـ اللسانيات و اللغة العربية :عبد القادر الفاسي الفهري.1/43.الطبعة الثانية 1988.دار توبقال .

4 ـ نفسه : 1/45.

5 ـ أنظر:الألسنية التوليدية و التحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الألسنية):ميشال زكريا.ص:161. الطبعة الثانية1986.المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.بيروت.

6 ـ الخلفية الفلسفية في النظرية التوليدية : بنكيران محمد الطيب.ص:46.مجلة عالم الفكر.المجلد الخامسو العشرون.العدد الثالث.1997

7 ـ البناء الموازي :عبد القادر الفاسي الفهري.ص:17.ط1/ 1990م . دار توبقال . الدار البيضاء .

8 ـ اللسانيات و اللغة العربية : 1/57

9 ـ أصول النحو العربي في نظر النحاة و رأي ابن مضاء و في ضوء علم اللغة الحديث:محمد عيد.الطبعة الرابعة.1989.عالم الكتب بيروت.

10 ـ أنظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل.للزمخشري.1/220. ترتيب وتصحيح : محمد حسين أحمد . ط3 . دار الكتاب العربي . بيروت

11 ـ يقول الفارابي :"كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من من الألفاظ، و أسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعا و إبانة عما في النفس و الذين عنهم نقلت اللغة العربية و بهم اقتدي و عنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم :قيس و تميم و أسد،فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ معظمه و عليهم اتكل في الغريب و في الإعراب و التصريف ،ثم هذيل و بعض كنانة و بعض الطائيين،ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم .وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط،ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم ،فإنه لم يؤخذ لا من لخم و لا من جذام فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر و القبط و لا من قضاعة و لا من غسان و لا من إياد فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام و أكثرهم نصارى يقرأون في صلاتهم بغير العربية ،ولا من تغلب و لا النمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية و لا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط و الفرس و لا من عبد القيس لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند و الفرس ،و لا من أزد عمان لمخالطتهم للهند و الفرس و لا من أهل اليمن أصلا لمخالطتهم للهند و الحبشة و لولادة الحبشة فيهم و لا من بني حنيفة وسكان اليمامة و لا من ثقيف و سكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم و لا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم و فسدت ألسنتهم و الذي نقل اللغة و اللسان العربي عن هؤلاء و أثبتها في كتاب و صيرها علما و صناعة هم أهل الكوفة و البصرة فقط من بين أمصار العرب". الإقتراح في أصول النحو :جلال الدين السيوطي .ص:44.الطبعة الأولى 1988.جروس برس.

12 ـ يقول ابن جني : "علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة و أهل المدر من الاختلال و الفساد و الخطل .و لو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم و لم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر..." الخصائص 2/5 . تحقيق : محمد علي النجار . دار الكتاب العربي .بيروت .

13 ـ أنظر :ـ البحث اللغوي عند العرب :أحمد مختار عمر.ص:52.الطبعة الرابعة.1982.عالم الكتب القاهرة.

ـ النحو العربي و الدرس الحديث : عبده الراجحي.ص:51.دار النهضة العربية 1986.بيروت.

14 ـ النحو العربي و الدرس الحديث:ص 48

15 ـ البحث اللغوي عند العرب :ص 52.

16 ـ اللسانيات و اللغة العربية :1/52.

17 ـ اللغة العربية :معناها و مبناها:تمام حسان.ص:336.دار الثقافة .البيضاء.

18 ـ اللسانيات و اللغة العربية :1/60.

19 ـ النحو التأليفي مدخل نظري و تطبيقي :محمد الحناش.مجلة دراسات أدبية و لسانية .العدد الأول .السنة الأولى1985.ص:58.

20 ـ تكوين العقل العربي :محمد عابد الجابري.ص:75.الطبعة الثالثة .دجنبر 1987.المركز الثقافي العربي.البيضاء.

21 ـ في الوقت الذي تعرضت اللغات الغربية ،خاصة الإنجليزية ،إلى دراسات مستفيضة نظريا و تطبيقيا حول الدور الدلالي و التركيبي لهذه الظواهر.أنظر: Note sur Lintonation Anglaise. Mitsou Ronat.Revue Grammaire transformationnelle et méthodologie.edité par centre de recherche Revue Encrages.Univ.Paris5.1982. 22 ـ نظرات في التراث اللغوي العربي :د.عبد القادر المهيري.ص:109.الطبعة الأولى1993.دار الغرب الإسلامي بيروت.

23ـ إحياء النحو براهيم مصطفى . ص (أ) . ط2/ 1992 م . دار الكتاب الإسلامي . القاهرة .

24 ـ مناهج البحث في اللغة : تمام حسان ـ ص 25 ـ 26 . دار الثقافة البيضاء 1979.

25 ـ نفسه : ص 66 .

26 ـ في إصلاح النحو العربي : عبد الوارث مبروك سعيد ـ ص 23 ـ الطبعة الأولى 1985 دار القلم الكويت .

27 ـ نفسه : ص 4 .

28 ـ نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث : نهاد الموسى ص 19 ـ 20.

29 ـ النحو العربي و الدرس الحديث:ص:142.

30 ـ الأنماط التحويلية في النحو العربي : حماسة عبد اللطيف.الطبعة الأولى 1990.مكتبة الخانجي. القاهرة.

31 ـ نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية :مازن الوعر.الطبعة الأولى 1987.دار طلاس دمشق.

32 ـ الأنماط التحويلية في النحو العربي :ص :11.

33 ـ اللسانيات و اللغة العربية:1/32.

34 ـ نفسه :1/56.

35 ـ نفسه :1/60.

36 ـ النحو التأليفي :ص :58.

37 ـ في إصلاح النحو العربي :ص:70.

38 ـ البلاغة العصرية و اللغة العربية : سلامة موسى.ص :148.القاهرة 1945.

39 ـ إحياء النحو :ص (هـ).

40 ـ نفسه :ص (و).

41 ـ نفسه :ص و)

42 ـ نفسه :ص :1.

43 ـ اللغة بين المعيارية و الوصفية :تمام حسان.ص :14.الطبعة الثانية 1992.دار الثقافة.

44 ـ الرد على النحاة :ابن مضاء القرطبي.ص:43.تحقيق :شوقي ضيف.دار المعارف.القاهرة.

45 ـ أنظر كتابه :تجديد النحو .الطبعة الثالثة .دار المعارف .القاهرة.

46 ـ نظرات في التراث اللغوي العربي :ص 131.

47ـ الإعراب و التركيب بين الشكل والنسبة : محمود عبد السلام شرف الدين.ص :3.الطبعة الأولى 1994.دار مرجان للطباعة.القاهرة.

48 ـ في النحو العربي قواعد و تطبيق على المنهج العلمي الحديث :د.مهدي المخزومي.ص:82.الطبعة الثالثة.1985.

49ـ اللغة بين المعيارية و الوصفية .ص:18.ويقول محمود السعران :"النحو يعنى أول كل شيء بترتيب الكلمات في جمل أي أنه يدرس الطرق التي تتألف بها الجمل من الكلمات ".علم اللغة.ص:254.دار المعارف مصر 1962م.

50 ـ إحياء النحو : ص8

51 ـ إحياء النحو :ص:8.

52 ـ اللغة العربية معناها و مبناها :ص 16.

53 ـ اللغة بين المعيارية و الوصفية .ص:16

54 ـ اللغة العربية معناها و مبناها .180ـ181.

55 ـ نفسه 189.

56 ـ أنظر الإعراب و التركيب بين الشكل و الانسبة:صج).

57 ـ اللسانيات و اللغة العربية 1/53.

58 ـ البناء الموازي .ص:18.

59 ـ نفسه .ص:19.

60 ـ61 ـ نحو نظرية لسانية عربية حديثة :ص:91.

62 ـ اللسانيات و اللغة العربية 1/32ـ33.

63 ـ أنظر محاولة أحمد المتوكل في :Réfléxions sur la théorie de la signification..و محاولة أحمد العلوي :Hérmenoloie coranique et intérprétation linguistique